صفحة تاريخيّة من أيّام الحرب

بقلم سيادة المطران عبدالله خوري النائب البطريركي الجزيل الاحترام

تناقلت الالسن في بيروت ولبنان رواية حادث جرى اثناء الحرب لغبطة بطريرك الموارنة مع احمد جمال باشا وذلك ان هذا اهتمّ كثيراً في اوائل تشرين الاوّل سنة ١٩١٦ وسعى السعي الحثيث لكي يأخذ من اصحاب المقامات العالية في لبنان وسوريّة شهادات تصرّح بانهُ يُحسن الصنيع مع السكان جميعهم وخصوصاً المسيحيّين منهم. وان من بين الذين طُلبت منهم مثل تلك الشهادات فاعطاها غبطةَ البطريرك الماروني. وقد ذهب القوم في الامر مذهبين فمنهم من ذمّ ومنهم من عذر

وبما انَّ المخابرات بهذا الشأن كانت بواسطتنا جئنا نبسط لقرّاء المشرق تفاصيلها مأخوذةً عن مفكرتنا تاركين لهم الحكم في الامر

في الثلث الاول من شهر تشرين الاوّل سنة ١٩١٦ تلقّى غبطة السيد البطريرك من علي منيف بك برقيّةً مفادها ان جمال باشا يطلب منهُ ايفاد ذي ثقة اليه لمخابرته بامر هامّ. فعهد غبطته الينا القيام بهذه المهمة وعليهِ برحنا الديمان صباح اليوم الثاني ويمّمنا بعبدا لمقابلة علي منيف بك في مركزه والاستعلام منهُ عن محلّ اقامة جمال باشا

ولدى وصولنا افادنا انهُ كان يومئذٍ في صوفر فواصلنا السير اليها وقابلنا جمال باشا في بيت المرحوم ميشال بك ابراهيم سرسق الذي كان باقياً هنالك مع بعض العائلات البيروتية رغماً عن زوال الحرّ. وما دخلنا على جمال باشا حتى تبيّن من مجرّد النظر اليهِ ما كان يعير الامر من الاهمية لانهُ قابلنا عابساً كالحاً وبادرنا بالكلام قائلاً: «قد طلبتُ معتمدًا من البطريرك لأُخابره بامر هو من الاهمية بمكان بعيد، فان اخبار هذه البلاد تصل بسرعة الى بلاد العدو والصحافة هنالك تنشر في اعمدتها الاكاذيب والافتراءات عني وعن ادارتي في هذه الديار. وقد امتازت الصحافة الافرنسية بحملاتها العنيفة الشعواء على الاتراك وهي تقول انهم اي الاتراك قد وطّنوا عزمهم على ان يبيدوا الشعب المسيحي جوعاً في لبنان وسورية وانهم لجأوا الى وسائل الإرهاب فنصبوا المشانق وألّفوا الديوان العرفي الذي لم يقف عند حدّ في جناياته الفظيعة وقد سئم المسيحيون عموماً والموارنة خصوصاً من تلك الحال وباتوا ينتظرون على جمر الغضا قدوم الافرنسيين

حتى ينضموا اليهم ويطردوا الاتراك ويحولوا بلادهم الى مستعمرة افرنسية» قال ذلك كله بلهجة المتأثر الناقم ثم أردف: «والآن اريد ان اعرف ما هي افكار البطريرك في هذه الامور كلها. فان كان ينكرها عليه ان يرفع الى نظارة المذاهب والاديان عريضة يحتج بها بلهجة شديدة على الصحافة الافرنسية وما تعزوه الى الموارنة من انهم يتحزبون لمقاتلة الاتراك ومناصرة الافرنسيين لدى قدومهم الى هذه البلاد»

وهنا سكت سكوت من ينتظر الجواب فقلت: «اني سابلغ غبطة السيد البطريرك حديث دولتكم وان سمحتم بابداء رأيي قلتُ: ان ليس للامر ما تعيرونهُ من الاهمية ولا ما يلقي التبعة والمسئولية على احد هنا اذ انهُ من المعلوم ان الصحافة لبأن الحرب خاصَّةً تسعى في تسويد صحيفة العدو وتكبير ذنوبه لاكتساب الرأي العام وانتم اعلم الجميع انتا غير مسئولين بما تقولهُ الجرائد ولا يمكن نسبة ذلك الى احد من اللبنانيين المقيمين هنا لتعذُّر المواصلات. غير ان هناك امرًا محزناً للغاية وهو النقص العظيم في الشعب اللبناني لأنَّ الذين توفُّوا حتى الان لا ينقص عددهم عن الخمسين الفاً (كنَّا في ت١ سنة ١٩١٦م.) ونحن الآن على ابواب الشتاء فيُخشى اذا دامت الحال ان لا ينقضي فصل الشتاء إلَّا وقد فقدت البلاد نصف السكان. واما ما يُعزى الى المسيحيين عموماً والموارنة خصوصاً فذلك لا يتخطَّى حدود المحبَّة الصادرة عن معرفة الجميل لفرنسة التي أغدقت حسناتها على البلاد. فانا مثلاً قد تربَّيتُ في معهد افرنسي وقضيت في فرنسة نفسها اكثر من ست سنوات اقتبست في خلالها العلوم الكهنوتية فلا يسعني والحالة هذه الَّا ان أحبها. غير انه بين حبي لفرنسة وبين ميلي لأن تكون بلادي مستعمرةً افرنسية بونٌ شاسع. وان حالتنا الممتازة في لبنان تجعلنا من اسعد شعوب الارض. وها هو رغماً عن صغره من اعمر بلدان الدولة العلية»

فابتسم جمال اذ ذاك ابتسامةً تشفُّ عن رضاه وقال: «اذاً ابلغ البطريرك ان يعمل الاحتجاج باول فرصة وتعود بهِ اليَّ لاراه قبل تبييضه وقل لهُ انهُ لا بدَّ من ارسال الاحتجاج عن يدي الى الاستانة» وبعد هذا استطرد قائلاً: «منذ ثلاثة ايام عرفت مع الاسف انهُ لم تصل للبطريرك الثلاث الشاحنات من الحنطة التي كنت قد وعدتهُ بها واصدرت اوامري بإرسالها لهُ وقد استأتُ جدًّا من الامر ومن عدم مراجعة البطريرك بهذا الخصوص»

فقلت : «ان ما بلغ دولتكم لم يكن كلهُ واقعيًا لانهُ وصل لغبطة البطريرك شاحنة واحدة من الثلاث واما عدم مراجعة دولتكم بشأن الباقي فذلك خشيةً من ان يكون غبطته سبباً في ايقاع القصاص بالمأمورين الذين تقاعدوا عن اجراء اوامركم بالسرعة اللازمة » فقال: وهل انتم الان بحاجة الى الحنطة ؟ قلت: لسنا بحاجة اليها لسكان الكرسي البطريركي انما نحن بحاجة ماسّة الى ما يساعدنا على سدّ ومن العدد العديد من الفقراء والبائسين الذين يلتجئون الينا . قال: ايكفيكم خمسون الف كيلو؟ اجبت: ليس عليَّ ان احدّد الكمية بل ما تتكرّمون به سواء كان كثيرًا او قليلًا يصير قبوله بالشكر الجزيل . قال: اذًا سأصدر اوامري ليُرسَل لكم مائة الف كيلو نصفها عن طريق حمص طرابلس والنصف الآخر عن طريق زحله بيروت جونيه

ثم قال قبل ان يمهلني للجواب: وهل البطريرك بحاجة الى الدراهم؟ فاجبته ان غبطته يأسف كل الاسف ان الظروف الحرجة الحاضرة تحول دونهُ ودون رغبته في مساعدة الحكومة مساعدة مالية ولهذا مهما كان من امر الخانقة المالية فانهُ يأبى التثقيل على الحكومة . قال: لا بدَّ من ان ارسل لهُ معك مبلغاً من المال . قلت: ارجوك ان لا تفعل لأني على ثقة من انهُ لا يكون راضياً عني في ما لو عدتُ اليه بدراهم . فان شاءت دولتكم أبنتُ لهُ عن استعدادكم بهذا الشأن وأفيدكم عمَّا يكون من جوابه لدى رجوعي اليكم قريباً . فاستحسن الجواب ثم قال وامارات الاضطراب وانشغال البال بادية على وجهه : «واني لا افهم كيف يسوغ للصحافة الافرنسية ان تنسب اليَّ اني أمتُّ انسكان جوعاً فهل انا ارسلتُ الجراد سنة ١٩١٥ ؟ وهل انا مسكت المطر سنة ١٩١٦ ؟ وهل انا وضعتُ النطاق البحري الذي يحول دون استجلاب الاغلال ودون وصول التحاويل المالية من المهجر ؟ الا ان الحلفاء هم الذين ضيقوا الخناق على البلاد واني لأستغرب كل الاستغراب كيف ان اولئك الكتبة يقبّحون اعمالي وبعضهم من المسلمين كواحد يُدعى خيرالله » . ورغماً عن كوني فهمتُ من هو خيرالله قلت : ومن هذا يتضح لدولتكم ان الحملة ليست بمسيحية حتى ولا لبنانية . قال: لا انكر ذلك . واراد الانصراف فقلت: وهل يمكن للسيد البطريرك ان يطالع اقوال الجرائد ليتمكن من الاحتجاج عليها بسهولة ؟ قال: تعود اليَّ غدًا فأصحبك باحد اركان حربي الى بيروت وهناك تقابل فؤاد بك رئيس اركان حربي المقيم في نزل بسول فيسلمك الجرائد

وبعد ان قضيتُ ليلتي تلك على الرحب والسعة في ضيافة جرج بك ثابت هبطت في اليوم الثاني الى بيروت برفقة احد الضباط ومكثت فيها ثلاثة ايام انقضت بالمخابرات الكثيرة بين الشام والقدس للبحث عن الجراند . واخيراً عدتُ الى الديمان على ان فؤاد بك يرسل لي الجراند الى هناك فارسلها واذا فيها ما كان اخبرني به جمال باشا

وقد وضع غبطته الاحتجاج بلهجة معتدلة متنصلاً من تبعة ما تنشره الجراند ومظهراً إخلاصهُ واخلاص طائفته المارونيَّة للحكومة العثمانية ذات السلطة الشرعية على البلاد . ثم ما لبثتُ أن حملت مع صورة الاحتجاج كتاب شكر للقائد العام على اعطائهِ البطريركية مائة الف كيلو حنطة . فوصلت الشام ليلاً وفي الصباح توجهت لمقابلة جمال باشا فأُدخلت عليه حال وصولي وبعد ان استلم مني الكتابين سألني ان اعود اليهِ في اليوم الثاني . ولمَّا حضرت في الموعد المضروب أبلغني الحاجب أن اعود في اليوم التالي فعدت فقيل لي ايضاً كالاوَّل وهكذا لم يتسنَّ لي مقابلة جمال باشا الَّا في اليوم الرابع وكان عنده علي منيف بك وميشال بك ابراهيم سرسق فبادرني حالًا وقال: «طالعتُ الاحتجاج وبما انهُ غير واقعٍ بالمقصود عملنا هذه الصورة فخذها وطالعها وعُدْ اليَّ صباح غدٍ وأوضح لي عن رأيك فيها» . فطالعت الاحتجاج ولدى ذهابي ينسب المجاعة الى الجراد والقحط والنطاق البحري واما الذين أُعدموا فقد حكم عليهم الديوان العرفي لثبوت جرم الخيانة عليهم . وفي الغد استأذنت من القائد العام وبيَّنت لهُ ان البطريرك بحنته الدينية ولانهُ لم يكن من قضاة الديوان العرفي لا يمكنه ان يصرح بان الذين أُعدموا قد استحقُّوا هذا الحكم لثبوت الخيانة عليهم . ثم من جهة الوفيات انها كثيرة جداً ولا يسع غبطته ان ينكر ذلك كما انهُ لا يستطيع ان ينسبها الى دولتكم فاستصوب ما قلتهُ ونقَّح النسخة بخط يده وبينما هو يفعل قلت لهُ : وان سمحتم لي دولتكم زدتُ ان النص موضوع بعبارة تشفُّ عن فظاظة غير مألوفة في رجل ديني فتطلَّب وقال: ليس من يبدي لي مثل هذه الملحوظات الَّا انتم الموارنة فها بطريركي الروم في القدس والشام لم يُبديا لي اقلَّ ملاحظة بل رضيا لي الاحتجاج كما شئت دون ان يضطرَّاني الى عمله بذاتي . فلو كان عندكم وطنية لكنتم تظهرونها تجاه تحامُل الاجانب دون ان تحرضكم الحكومة على الامر . وهاكم سكان طرابلس الغرب فقد تنازلت الدولة العثمانيَّة عن بلادهم لايطالية وهم لوطنيتهم لا يزالون يصلونها القتال

ثم استدعى احد الضباط ليرافقني الى الديمان ويعود بالاحتجاج مُوقَّعاً عليه من غبطة البطريرك ويستردّ صورته الاصلية . ولدى وصولنا الى بيروت استشرتُ بعض اصدقاء المقام البطريركي في شأن الاحتجاج فأشاروا بوجوب التوقيع عليه بعد ما اطّلعوا على كل الظروف لانهُ ما من احد الّا ويعلم ان البطريرك أُجبر على امضائه وانهُ اي الاحتجاج تكون نتيجته بعكس ما تقصدهُ الحكومة . ولدى وصولنا الى الديمان واطّلاع غبطته على كل ما جرى صار تبييض الاحتجاج وتسليمه الى الملازم فحمد وانصرف اليوم الثاني الى دمشق

مجالس ايليا مطران نصيبين

نشرها الاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

المجلس الرابع

في تثبيت مذهب النصارى من موجب العقل والمُعجز

وفي اليوم الخميس الثالث من جمادى الآخرة استدعاني الوزير الى مجلسهِ فصرتُ اليه . واوّل ما صرتُ اليهِ وجلستُ قال لي (٥٢) :

ما العلّة في محبّة اكثر الناس لأديانهم اكثر من محبّتهم لاحوالهم واسبابهم ؟

قلتُ : انَّ الناس في ذلك على ضربَين فمنهم من يحبُّ دينهُ بالعادة والمتابعة لأسلافهِ ومنهم من يحبُّهُ لتحقُّقهِ وصحّتهِ

قال : فمن اين يتحقّق الانسان صحّة دينهِ ؟

قلتُ : امّا من العقل الصحيح وامّا من المعجز الالهي

قال : فمحبّتك انت لمذهبك محبّة العادة والمتابعة لأسلافك او محبّة من يتحقّق صحّة مذهبهِ ؟